السلطان: فاخذ الجريدة في كمّه ومشى معهم. فلما وقف قدّام السلطان قال لهُ: انت فلان. قال: نعم. قال: وانت تكتب اسماء الحارَفين. قال: نعم. قال: وكتبتني في جريدتك. قال: نعم وهذا اسمك. ثم اخرج الجريدة فاراهُ اسمهُ فيها. فقال السلطان: وما الذي رأيت من جراني حتى كتبتني. فقال: كيف لا اكتبك وقد جاء رجلٌ نصّاب غشّك ودكّ عليك الف دينار اخذ بها اموال المسلمين وراح ليجيء لك بالطبرمك فهل يكون جراف ابلغ من ذلك. فلما سمع السلطان كلامهُ قال لهُ: كانّا بهِ وقد جاء ومعهُ الطبرمك فيعمل منهُ اموالًا لا تحصى. فقال: يا مولانا السلطان ان جاء محوتُ اسمك وكتبت اسمهُ. فضحك السلطان ورسم لهُ بنفقة وراح. فكان كلّما افلس اخذ الجريدة ووقف على باب القامة فاذا ركب السلطان فتح الجريدة فيقول: ما جاء العجمي وهذا اسم مولانا السلطان. فيضحك السلطان ويرسم لهُ بشي فياخذه ويروح واقام على ذلك مدّة حياة السلطان وما جاء الطبرمك

وقد الحق الجويري هذه القصّة بخبر مغربي يدعى عبد الله المغاوري (ويروى الغموري) وقف على حيلهِ احد موالي الامير عزّ الدين ايبك المعظّمي المتوفى سنة ٦٥٥ (١٢٥٧) (الستّة اعداد آخر)

سياحة في سويسرة

لشاب الاديب جرجي بن يوسف اليان مركبس احد طلبة المدرسة في كلّية لوزان (تتمّة)

بعد ان زرنا مدينة لوسرن ومتّعنا الابصار بما فيها من الآثار والمشاهد البديعة غادرناها سائرين الى زوريخ. وكان سفرنا في ظهيرة الاربعاء ١٩ آب على ظهر باخرة قطعت البحيرة على طولها (وهو يبلغ ٣٢ كيلومترًا) في مدّة ساعتين ونصف. وكان هذا من ابهج واشوق الاسفار لما كنّا نعاينهُ في طريقنا من المناظر الفتّانة على ضفّتي البحيرة فكنّا نوجه الابصار الى الآكام والرُّبى المحدقة بها وكلّها مكسوّة بالعشب الاخضر تزينها الغياض وتجلّلها ضروب الاشجار. ووراء هذه التلال تشرف جبال شاهقة اعظمها جبل ريجي (Rigi) الذي موقعهُ في مركز بلاد سويسرة يبلغ علوّهُ ١٨٠٠ متر ومن

مدينة ماردين (عن صورة شمسية ، من رسم حسن الباشا الخراط)

فتئذ ينظر الناظر ما يأخذ بمجامع الفؤاد ويسبي حشاشة الاكباد واكثر الزوّار يقصدون هذا الجبل رغبةً في محاسنهِ ومعاطفهُ اشبه بجنّة غنّاء تشتمل على اجناس النبات وصنوف الاشجار

وبعد برهةٍ من الزمـان رأينا ضفّتي البحيرة قد تقاربتا حتى كادتا تتماسّان فجرينا في هذا المضيق نميل تارةً الى اليمين واخرى الى اليسار ولاحت لنا على شاطئ البحيرة طريق غريبة للعجلات فتحهـا السويسريّون في قلب الصخور التي تنتصب في جانبي البحيرة فالطريق منقورة في الصخر الاصمّ تُرى حيناً مكشوفة وحيناً نافذة في الأنفاق ذات كوًى منيرة . والسابلة يجرون فيها لبهجة مناظرها . وكثير من هذه الانفاق قد نُقر في الجبل على هيئات بديعة كالاروقة والمعاهد والقاعات تسند سقوفها الاعمدة والسواري

وألقت الباخرة مرساها عند محطّة اسمها تلسنبلات يشرف عليها جبل يبلغ ١٧٠٠ متر فوق سطح البحيرة وهناك ينزل السيّاح ليزوروا مشهـدًا اقامهُ السويسريّون كأثر وطني ذكرًا لحرّ بلادهم من جور الظالمين في اواسط القرن الرابع عشر ألا وهو غليوم تل البطل الصنديد . والمشهد المذكور شهير في كل هذه الجهات في وسطهِ تمثال عجيب يُعدّ من طُرف الصناعة

ثمّ جرت بنا السفينة ونحن لا نزال نتنقّل من منظر الى آخر وكنّا نرى جبـال ايالة شويتز (Schwytz) السامقة بعلوّها ونحن نودّ لو يسمح لنا الوقت بالتجوّل في نواحيها ونرقى الى معبد هناك قديم العهد ذائع الشهرة يحجّ اليهِ كل سنة نيّف ومائة الف من الزوّار اعني مزار السيّدة البتول في أينسيدلن (Einsiedeln) وهنـاك دير للبندكتيين بُني في القرن العاشر . أمّا كنيسة العذراء فمن بدائع الهندسة فيها عدد لا يُحصى من الآنية الثمينة والتماثيل البديعـة والنقوش الصناعيّة والتصاوير التي تُنسب لمشاهير الصنّاع من جملتها صورة السيّدة العجائبيّة يعرضونها في بعض الاعياد بأبهـة عظيمة وعيدها الكبير في ١٤ ايلول يتقاطر اليها الناس من سائر جهات سويسرة بل من جهات اوربّة البعيدة . وفي الدير متاحف غنيّة بضامينها منها للمعادن ومنها للنبات ومنها للآثار القديمة . والرهبان مشهورون بفضلهم لهم مطبعة كبيرة مجهّزة بكل الادوات الطبيعيّة من الطرز الجديد . وعندهم مكتبة غنيّة بمخطوطاتها الثمينة اللاتينيّة واليونانيّة والالمانية يقصدها العلماء لذلك

ثم انتهينا بعد ساعة الى قرية فلون وهي اقصى محطة السفينة في تلك البحيرة التي يبلغ طولها ٣٢ كيلومترًا قطعناها بساعتين ونصف . نزلنا هناك وانتظرنا القطار ان يسير بنا الى مدينة زوريخ فما لبث ان جاء يهدر بعجيجه ويملأ الفضاء بصفيره فركبناه . فسار يطوي بنا السهول وكانت البحيرات تبدو لنا من اليمين تارةً ومن الشمال اخرى وتناوحنا على الجانبين الروج والآكام الخضراء والبيوت البيضاء المكنونة بين الادغال حتى وصلنا الى محطة أرث گولداو (Arth-Goldau) باسم قريتين هناك موقعهما في سفح جبل ريجي المذكور الذي ترى هامتهُ المعممة بالثلج على علو ٤٥٠٠ قدم وقد اصطنع السويسريُّون اربع او خمس مسكك حديديَّة ذات سلاسل للصعود الى مشارفه والتمتع بمشاهده الساحرة . وعند قريتَي أرث وگولداو حدث سنة ١٨٠٦ انخساف جبل روسبرغ فسُمع لهبوطهِ دويّ على مسافة بعيدة وتحدَّرت الى قعر الوادي صخور الجبل واشجاره وكل مبانيهِ زاحفةً بما وجدت في طريقها من المواشي والاهلين حتى خيّل للسكان انَّ الساعة قد قامت . وقد مات بذلك الحادث مئون من البشر وبادت قريتا أرث وگولداو

ثم أبدلنا قطارنا بقطار آخر جعل يذهب بنا الارض الى زوريخ . وكان مرورنا على بُحيرة تسوغ (Zug) الرائعة النظر التي تركو على اطرافها التلّات وتسوّر الاشجار المثمرة والكروم . وبها دُعيت إيالة تسوغ احدى ايالات سويسرة الشهيرة بجمالها ووفرة محاسنها ولها حاضرة باسمها على ضفَّة البحيرة

وقد فاتني ان اذكر أنَّنا منذ دخلنا فريبورغ اصبحنا في المقاطعات التي لا يتكلم اهلها غير الالمانيَّة فكنَّا نحتاج الى ترجمان يقضي لنا حاجاتنا

احتللنا زوريخ اصيل النهار يوم الاربعاء ١٩ وهي حاضرة احدى الايالات السويسريَّة المتَّحدة كما انها تحسب كعاصمة سويسرة الكبرى يبلغ عدد سكَّانها مع ضواحيها نحو ١٧٠,٠٠٠ نسمة موقعها في بطحاء واسعة معتدلة الهواء عند طرف بحيرة تُعرف بها حيث يخرج نهر ليمات (Limmat) فيشقّ المدينة ويمدّها بمياههِ الطيّبة . وايالة زوريخ كثيرة الجبال دافئة الانهار على تخومها يجري نهر الرين الزاخر ويتحدَّر بجنادل كجنادل مصر

وزوريخ احدى مُدن الدولة الاوليَّة تعقد فيها الحكومة جلساتها وتقضي بالامور العموميَّة الشاملة لصوالح البلاد . ولزوريخ شهرة واسعة بكثرة معاملها ولاسيما المعامل

الحريرية التي كادت تجاري بحسن منسوجاتها اجود منسوجات غيرها . وفي هذه المدينة كلية يزدحم الشبان في مكاتبها العلمية وهي المدرسة الجامعة التي لا يقلّ معلّموها عن ١٣٠ استاذًا وتلامذتها عن ٣٠٠٠ ولها قسم آخر هندسي طلبتهُ زهاء الف طالب ومعلّموهُ نيف ومئة . وفي هذه المدارس تخرّج رجالٌ من نخبة العلماء كالمؤرخين والشعراء والكتبة والاثريين والفقهاء . ومن جملة ما تحويه معاهد تلك الجامعة متحف آثار البشر الاوّلين الذين عاشوا قبل الطوفان او قبل التاريخ المعروف اي طور الظرّان . وهناك كذلك متحفٌ صناعي جامع لادوات الفنون الصناعيّة منذ القرون الوسطى الى عهدنا يُوقف الناظر لآثره على تقدّم الصناعة في القرون الاخيرة في انحاء اوربّة . وخلاصة القول انّ زوريخ استحقّت بهمّة اهلها أن تُدعى باثينا سويسرة وبحيرة زوريخ من ابدع بحيرة يُحدق بها ثماني عشرة قرية وعدّة دساكر وعليها تنقل السفن واردات ايطالية الى سويسرة وصادرات سويسرة الى ايطالية

وفي ظهيرة يوم الغد طارت بنا اجنحة القطار الى مدينة وِنتِرتور (Winterthur) وبُعدها عن زوريخ اقل من ساعة وهي في موقع مدينة قديمة كان يدعوها الرومان باسم ڤيتودورُم والبلدة الحاليّة كثيرة البهجة شهيرة الاعمال الصناعيّة تباري بها زوريخ وفيها المامل القطنيّة ومعامل ورق الكتابة بكل اجناسهِ . ذلك فضلًا عن حدائقها وغياضها

وكان موعدنا في مساء ذلك النهار بلدة صغيرة اسمها فَرَرْنفلد لا يزيد سكّانها عن ٧٠٠٠ نفس . وهي وطن المسيو بوْير الذي كان رافق الشقيق من تونس وسبقنا الى مسقط رأسه . فاضافنا في منزلهِ وبالغ في اكرامنا حتى كدنا نحسب نفوسنا بين الاهل والاحباب في بلادنا الشرقيّة . والحق يقال انّ اهل سويسرة يحسنون وفادة الضيوف ولا يألون جهدهم في اكرامهم حتى انّ لطفهم يزيد رغبة الوفود في زيارة بلادهم العجيبة

وبعد ان تناولنا طعام المساء خرجنا للنزهة في البلدة فدخلنا ناديًا كانت فيهِ جوقة من العسكر يعزفون بالآلات ويحيط بهم عدد لا يُحصى من اهل المدينة . ومما سرّنا مشاهدتهُ تمارين حربيّة كان يتولاها الجند في غابة قريبة من البلدة . وكانوا يطلقون المدافع على اهداف مرتفعة او حجارة منصوبة . وقد شاهدنا بين تلك المدافع مدفعًا لم يُر دخان

طلقته لكنّنا سمعنا لهُ دويًّا ارتجّت الارض بسببهِ فلمّا اصاب الغرض تصاعد دخانهُ وانتشر الغبار في الجوّ

ودخلنا هناك بستانًا وجدنا فيهِ ضروب الاثمار تنوء تحت عبئها الاغصان لكثرتها. وقد نالوا ذلك بحسن قيامتهم بفلاحة الارض وتوزيع المياه وتقليم الشجر يجرون في كل ذلك على قوانين علميَّة تضاعف جنى الاثمار فتزيد محصولاتها كثيرًا على بساتيننا الشرقيَّة وكذلك ادخلنا صديقنا الى معمل دفاتر ابتناءُ هناك اخوهُ يشتغل فيهِ عددٌ من الصنعة واكثرهم من البنات والفتيات بكل نظام وحسن تدبير . ومعظم الشغل دائر على أدوات جديدة تقرّ العمل وتوفر عدد المصطنعات

وكان في البلدة سيّدة سكنت مصر عدّة سنين فلمّا علمت بقدومنا ارسلت فدعتنا الى بيتها لنشرب عندها القهوة. فاستقبلنا عند ما دخلنا البيت ابنها الصغير وسلّم علينا بالعربيَّة بهذه الالفاظ: « ليلة سعيدة ايها الاحباب ». فقضينا هناك ساعة نذكر الاوطان وعادات الشرق ثم وشربنا القهوة العربيَّة كما يعدّها اهل بلادنا. وكان طعامنا في ذلك المساء لبنًا دسمًا غاية في اللذة تناولناهُ في جنينة عمويَّة لم ينقصنا شيءٌ فيها من اسباب المسرّات

وفي صباح يوم السبت ٢٢ آب ودّعنا صديقنا السويسري شاكرين لطفهُ وروادهُ فركبنا قطارًا صغيرًا بطيء السير أقلّنا بعد ساعة الى مدينة سان غال (Saint-Gall) حاضرة ايالة سويسريَّة تُعرف باسمها وتُعدّ من اخصب ايالات القطر السويسري لكثرة مراعيها واحراجها ووفرة مواشيها والبانها وفيها معامل للجبن السويسري المشهور. ولها ايضًا مصانع كثيرة للجوخ والجارد والمنسوجات والتطريز . والتجارة في انحائها قائمة على ساق وقدم لاسيما في حاضرتها. وهي مدينة من احفل بلاد سويسرة بالسكّان الذين يبلغ عددهم خمسين الفًا وموقعها على نهر جارٍ اسمهُ شتّيناخ يصبُّ في بحيرة كنستنزة وضواحيها تمتدُّ على ضفّتيهِ على مسافة ساعة بين الخضرة والبساتين. واصل هذه المدينة دير بُني للرهبان فعُرف باسم بانيهِ القديس غال في القرن السابع ولم يزل ينمو ويتّسع حتى استفاضت سمعتهُ واحتفل من حولهِ السكان وشُيّدت بقربهِ المباني. وكان رهبان الدير يُعنَون بالعلوم فيقصدهم الطلبة ويأخذون عنهم حتى انّهم قبل مئة سنة وخُصَّ ديرهم بالمتاحف الوطنيَّة منها مجاميع من المواليد الطبيعيَّة والمصنوعات

اليدوية. ومكتبة هذا الدير من اغنى الخزائن الكتبية بنفيس المخطوطات البديعة النقش العزيز الوجود. ومدينة سان غال تسبق سواها من المدن باقمشتها التي تنقل الى اطراف المعمور وهي شهيرة ايضاً بشرائطها المخرّمة والمزركشة ولها معامل متقنة لدباغة الجلود. وقد زرنا كنيستها الكاتدرائية فدهشنا مما رأينا فيها الاعمال الهندسية والنقوش العجيبة في جميع اطرافها ويزين جدرانها عدد لا يحصى من التماثيل والرسوم والصور اشتغل بها مدة اجيال متوالية كبار المهندسين وجلّة المصورين . وترى بين صحن الكنيسة والهيكل الكبير حاجزاً من الحديد المنقوش المفرغ يمثل اشكالاً هندسية وضروب التصاوير. وفيها ايضاً ارغن كبير كارغن فريبورغ لكننا لم نسمع نغماته. وكنا قصدنا التجوّل في البلدة لولا ما جادنا به السماء من المطر المدرار فبرحنا المدينة بعد ساعتين متوجهين الى بحيرة كونستنزة والسفر بين سان غال وتلك البحيرة نزهة تروق العين وتشرح الصدر فتمرّ بين المروج والرياض النضرة . وكانت البحيرة تلوح لنا من وقت الى آخر فتبدي محاسنها فقربنا حتى اقتربنا منها وجرينا بقربها لكنّ الامطار كانت تتهطّل علينا فتحرمنا التمتّع بها

ومعلوم انّ بحيرة كنستنزة واقعة بين سويسرة والمانيا فليس لسويسرة منها الّا طرفها. وباقي المياه لمملكة المانية. فلما وصلنا الى حدود البلادين مررنا بجمرك الالمان حيث أُجري التفتيش المعتاد على المواد الممنوع تهريبها ثم دخلنا مدينة كنستنزة التي تخصّ المانية وهي واقعة في دوقيّة باد فسمعنا هناك لاول مرّة اللغة الالمانية الصرفة التي تحلو على الاطفال الالمان وتطرب الاذن بلينها دون السويسريين المعروفين بلهجتهم الخشنة. وكونستنزة هذه ليست مدينةً كبيرة فانّ سكانها لا يربون على ٢١,٠٠٠ . وهي تمتاز بتوسطها التي تقصدها السفن المتعدّدة ومن حركة مراكبها يُستدلّ على خطر تجارتها. وليس في المدينة ما يستحقّ الذكر الا انّها حسنة البناء تزينها الشوارع الرحبة المظلّلة باشجار الحور. وكنيستها الكاتدرائيّة قديمة يُوشر في بنائها في القرن الحادي عشر وفيها عُقد مجمع كنسي من السنة ١٤١٤ الى ١٤١٨ به تمّ الشقاق الغربي المشؤوم. وللكنيسة برج مرتفع يبلغ علوه ٧٦ متراً ترى العين من اعلاه البحيرة مع كل نواحيها وفي هذه المدينة شربنا لاوّل مرّة الجعة (البيرة) الالمانيّة التي يُضرب المثل في لذّتها

ومن بحيرة كنستنزة هذه يخرج سيّد الانهار الالمانيّة اي نهر الرين وعلى مسافة ثلاث ساعات من منبعه جنادله التي يتوارد الزوّار الى معاينتها من كل صقع وناد .

فقصدنا نحن ايضاً ان نسير اليها لنسرّح الابصار في مياهها فركبنا سفينة من السفن العديدة التي تنقل الركاب الى المدن الواقعة على سير المياه. وكان مجراها اولاً على نهر الرين نفسه ثم دخلت بحيرة أخرى ثم عادت الى النهر. وقضينا كذلك ثلاث ساعات بسرور لا يوصف لان المناظر التي تجتذب ابصارنا كانت نهاية في الحسن فضفّتا النهر واطراف البحيرات كأنها مفروشة بالنبات تظلّلها الاشجار والحدائق. ويزيد على هذه المشاهد بهجة رونق البلاد والقرى التي بُنيت في تلك الجهات. وربما كان يضيق بنا المسلك بين الضفّتين او ينفرج على اختلاف سعة الوادي. وقد نصبت جسور عديدة فوق النهر فتمرّ السفن تحتها بعد ان تحني مدخنها للمرور. وبعض هذه الجسور تجري فوقها السكك الحديدية ومنها جسر بني فوقه منازل وتنفذ فيه النوافذ يميناً وشمالاً. اما عمق المياه فيختلف وللربان علامات مركوزة في النهر او عائمة على البحيرات او مناور يستدلّ بها على قعر المياه فيحيد عن الصخور لئلا ترتطم بها سفينته

وكان نزولنا في بلد شفهوز (Schaffhouse) في مساء النهار اذ كانت الشمس في أفق السماء ترسل أشعتها الاخيرة الارجوانية على تلك الضواحي فتكسوها حللاً بهية ذات ألوان زاهية. فنزلنا في احد فنادق البلدة لنبيت فيها ليلنا. وكان سبقنا اليه احدى شركات الجناز فزيّنت بعض حجره بالالوية والرايات لفوزها بما نالته من الفوز في سباق جرى في المدينة. فأُعدت لهم وليمة فاخرة وشربوا نخب اصحابهم وغنّوا الاغاني الوطنية المألوفة عندهم. ومدينة شفهوز هذه عدد اهلها ١٨٠٠٠ يقصدها السيّاح لقربها من شلالات الرين

*

قمنا في غلس النهار التالي وبعد تناول الطعام اسرعنا الى محطّة الترامواي الكهربائي فركبنا قطاره الذي اقلّنا مع جملة الزوّار الى قرية تبعد ربع الساعة. فكنّا نسمع عن بعد صوت المياه المنحدرة يزيد عجيجها كلّما نتقدّم الى الامام. ولما انتهينا الى القرية تبعنا القوم المتسارعين الى جهة النهر. فبعد قليل تراءى لنا منظر عجيب كاد يفتن حواسّنا فرأينا مياه النهر منحدرة من اعالي الصخور وهي تتناثر كالغبار الابيض او كقطع اللجين وكانت الشمس الطالعة تضرب اشعّتها في تلك الدقائق المنتثرة فتلوّنها بكل الوان قوس قزح فتارح لك بين صفراء وحمراء وخضراء وزرقاء. فكانها انوار ساطعة تبهر

الابصار باشكالها والمياه تتناثر يمينًا وشمالا على بُعد عظيم ومنها ما يزيد ويفور ومنها ما يتصادم على الصخور فيتكسَّر قصَدًا ويتطاير شُعاعًا حتى يسيل برغوة وافرة الى النهر فينضمّ الى باقي المياه ويجري بهدو وجلال. وهناك قصر يُدعى قصر لوفان يكشف على الشلّالة فيراها الناظر بكل روعتها المهيب ومشهدها البديع وذلك باجرة رسميَّة تساوي فرنكًا واحدًا فدفعناه بطيب الخاطر لنتمتّع العيون بهذا المرأى الفريد الذي تقصر الاقلام عن استيفاء وصفهِ. ومما يزيد هذا المنظر جمالًا صخرة عظيمة تقسم جري المياه الى قسمين وعليها تتدفَّق المياه الزاخرة بهيئات تختلف اشكالها ومحاسنها. وهو منظر شائق لا انساه طول عمري

ولهذا القصر مزيَّة خصوصيَّة قصدها بُناتهُ فانهم جهَّزوا اطرافهُ بادوات مختلفة نظموا دوزانها مع اصوات المياه في عجيجها فاذا قرَّبها الانسان من آذانهِ سمع نغمات موسيقيَّة منها رخيمة لطيفة ومنها ضخمة غليظة. وكذلك اذا جلست هناك على اسكمنة او كرسيّ شنَّف مسامعك صوت من الاصوات الشجيَّة

وبعد هذا نزلنا الى الجنينة حيث أُقيمت نوافذ بزجاجات ملوَّنة فينظر فيها الناظر مياه الشلالات فتروعهُ الوانها وتاخذ بابصاره محاسنها

ثم ألبسنا اصحاب القصر مشمَّعات وقرَّبونا من الشلّالات فكانت مياهها تتناثر علينا ونحن نشخص الى المياه في اصطدامها وفورانها وتحامُل بعض اقسامها على البعض وهي تهدر وتزمجر فترنُّ بها الآذان ويدوي بها صماخ السامع. وكان هناك قوارب يركبها الزوار فنزلنا فيها لنقطع عليها النهر ونرى الشلّالات طولًا وعرضًا فتجوَّلنا في وسطهِ واطرافهِ ولم ندع شيئًا يفوتنا من محاسن الطبيعة المتجمعة في ذلك المكان. وكان لتجوّلنا فائدة أخرى ان نشاهد المعامل التي شيَّدها ارباب الصناعة على جانبي الشلالات ليستخدموا قوَّة المياه بدلًا من البخار اقتصادًا. وخلاصة القول أنَّنا كيفما أجلنا الطرف في تلك المياه حارت افكارنا وسبَّحنا الخالق بمشاهد تلك المناظر السحريَّة التي يزيد عجب المرء منها على قدر ما يزيد التأمل في خواصها الطبيعيَّة

ومما شاهدناهُ في ذلك اليوم بعد رجوعنا من شلالات الرين برجٌ قديم شيِّد على ربوة مطلَّة على ذلك النهر بُني سنة ١٥٦٤ وجدرانهُ يبلغ سمكها ستَّة امتار وليس لهذا البرج سوى قاعة واحدة متَّسعة الارجاء وفي اعلاها قبَّة مرتفعة لها نوافذ تنيرها من

علُ . وعلى سطحها مدفعان قديمان من النحاس وللبرج اقبية كانوا يدخرون فيها المؤنة ويسجنون الاشقياء.

بعد ان زرنا الرين وشلالاتـه حان لنا الرجوع من رحلتنا - وفارقنا حينئذٍ صديقنا السويسري وبقيت انا والشقيق فركبنا القطار لنعود على غير طريقنا السابقة على مدينة بال وننتق سان غوتار

بال احدى امّهات المدن السويسريّة وحاضرة اقصى مقاطعاتها الشماليّة . والمدينة تمتدُ على ضفّتي نهر الرين في موقع غاية في الحسن والبهجة وقد مُدَّ بين الجهتين جسر كبير من الحجر طولهُ ١٩٥ مترًا وعرضهُ ١٨ م وعليه ابنية مختلفة كالمطاعم والقهاوى والمنتديات العموميّة . وعلوّهُ فوق النهر بالغ حتى ان المراكب البخاريّة تمرُّ تحتهُ بلا مانع

وبال مدينة تجارية فيها كثير من ارباب الثروة وفيها تُقام الاسواق الحافلة . واهلها اليوم يبلغون ١٢٥,٠٠٠ ويغلب عليهم لين الطبع والاستقامة في المعاملات والهمّة في ادارة الاشغال وحبّ الحرية فيتفاخرون بعاداتهم الديمقراطيّة وقد اقاموا لذلك في باحة المدينة اثرًا من رخام يشير الى فوزهم بالاستقلال الجنسي . وكان يوم دخولنا المدينة يوم الاحد وفيه تفتح المعاهد الاثرية والمتاحف العظيمة فيزورها الناس مجانًا . ودخلنا اوّلا الدار المختصّة بآثر مدينة بال القديمة فكان هناك حجر مُتحى وقد خصُّوا كل حجرة بشيء من العاديات كالاكسية العسكرية والاسلحة القديمة من ظرّان وخشب وحديد وبندقيّات يبلغ طول الواحدة اربعة امتار . وقد جُمعت في بعض القاعات الاثاث البيتيّة كالفرش والسُّرر وادوات الطبخ وآنية الطعام وغير ذلك ممّا ينطق بلسان حاله عن عادات سكّان البلد سابقًا . وقد خُصَّ معهد آخر بالآثار الدينيّة فوجدنا بينها الاواني النفيسة كالصلبان والذخائر والكاسات والاسْقُفة الذهبيّة المرصّعة بالجارة الكريمة الحكمة الصُّنع الدقيقة العمل وكذلك التماثيل الدينيّة منها بالرخام ومنها بالخشب وبينها الحليّ والحُلل الاسقفيّة والكهنوتيّة . واكثر هذه الطرائف كان يخصُّ قديمًا دير الرهبان الفرنسيسيين الذين سكنوا بال مدّة اجيال مديدة

ثم انتقلنا الى متحف اخر جمعوا فيه مآثر الفنون الجميلة من نقش وتصوير ورسوم ودُمى وهناك عجائب من اعمال والصنائع العاوم الطبيعيّة والجيولوجيا والمعادن والنبات والحيوانات المفقودة وغيرها وكلها مصبَّر على هيئتها الطبيعيّة . وهذه الآثار منتظمة في

ثماني عشرة قاعة يضيع فيها الزائر لاتساعها وبل من كثرة مناخرها وبدائعها

ومما يستحق الذكر من مباني بال بعد ان صبرت على مكايد الزمان من حريق وزلازل كنيستها الكاتدرائية اقامها الملك هنريكوس الثاني سنة ١٠٢٩ واتقن البناة هندستها وهي مشيدة بالآجر الاحمر البديع تتخلله صفائح من السبورة (ardoise) المختلفة الالوان . وجدران الكنيسة منقوشة بالتصاوير الممثلة للسيد المسيح ورسله الكرام والاخبار الانجيلية . ولهذه الكنيسة برجان يبلغ علوهما مئتي قدم بنيف . وهي اليوم في ايدي البروتستانت

ومنها دار الصناعة التي جمعت فيها كل الاسلحة القديمة التي كانت شائعة في حروب الاعصار السالفة . ومنها ايضاً مكتبتها الغنية بالمطبوعات النادرة والخطوطات البديعة

*

وفي اليوم التالي وهو الاثنين الواقع في ٢٩ آب ركبنا القطار الى مدينة اولتن قاصدين السفر منها الى نفق سان غوتار . وهذا النفق يعدّ من المشروعات الكبيرة التي قام بها الاوربيّون في عهدنا . ويجاريه اليوم نفق سمبلون الذي وصفهُ المشرق سابقاً (٨ : ٣٢١و٩ : ٦٤) وقد تكلّف المهندسون في حفر نفق سان غوتار ٥٦ مليوناً من الفرنكات ويبلغ طولهُ خمسة عشر كيلومتراً كالمسافة بين بيروت والمعاملتين وهو يصعد في قلب الجبل الى علوّ ١١٥٤ متراً . وقد تمّ حفرهُ بثماني سنوات من السنة ١٨٧٢ الى ١٨٨٠ . أمّا السفر في هذا النفق فانهُ بادئ بدء يقبض لهُ الصدر اذ يرى المرء نفسهُ منفصلاً عن عالم الاحياء داخلاً في مدفن عظيم وفي ليل دامس مدلهمّ ثم يطمئن قلبهُ بعد مدّة ويرى هناك من المناظر الطبيعيّة ما يشغل فكرهُ ويملأ صدرهُ فانّ شركة السكة الحديديّة قد تأنّقت في بناء النفق وانارت جهاتهِ بالانوار الكهربائيّة وجعلت لهُ بعض محطّات وجعلت لمياه الجبل مجاري الى غير ذلك مما يجعل اجتياز النفق من المشاهد السارّة . والسكة الحديديّة قبل دخولها النفق وبعد خروجها منهُ تمرّ في جبال وتلال وغابات واودية تتوفّر فيها المناظر البهجة التي تحيك في قلب المسافر وهو يسير من نفق الى آخر وجداول المياه المتحدّرة من اعالي الجبال تسيل على جانبيهِ يمنةً ويسرةً على هيئات شائقة

ثم قضينا الأيام التالية في بعض الاسفار الى جهات اخرى من سويسرة حتى تجاوزنا حدودها وبلغنا مدينة ميلانو الايطالية الشهيرة بآثارها البنائية والفنية ونحن نضرب هنا عن وصفها لنقصر كلامنا على سويسرة . وكان آخر ما شاهدناهُ عند رجوعنا الى سويسرة فجعلناه كذلك ختام سفرتنا الى مدينة جنيفة عاصمة هذه البلاد

وجنيفة اسم لاحدى معاملات سويسرة الصغيرة وخطرها بوجود العاصمة فيها . وهذه المدينة موقعها في جنوبي غربي البلاد عند مخرج نهر الرون من البحيرة المعروفة باسمها وسكانها نحو ١٢٠,٠٠٠ . والمدينة قديمة العهد وكان احسن ما فيها منظرها على شواطئ بحيرتها وكانت ابنيتها حرجة واطئة وازقتها صغيرة ضيقة الّا انّ اهلها لم يزالوا منذ خمسين سنة يجدّدون مبانيها ويحسّنون هندستها ويفتحون لها الشوارع وينظّمون الساحات والحدائق ويشيّدون لها المعاهد الكبيرة حتى صارت تعارض اليوم حواضر اوربة . وفي احدى ساحاتها اثر لاحد المحسنين الى المدينة اوقف على ترميمها وتحسينها عشرين مليونًا من الفرنكات اسمهُ برونسويك (Brunswick) والاثر بناء من رخام على نسق قبّة ميلانو جُعل في وسط مقام تحدق به زهور وتجري المياه وعلى مقدّمته اسدان من رخام يهاب الانسان منظرهما لدقّة صنعهما

اما مناظر جنيفة الطبيعيّة فحدّث عنها ولا حرج فانّ بحيرتها والنهر الخارج منها والجزائر التي في وسطها وضواحي المدينة والجبال الشاهقة المحدقة بها المكسوّة بالثلوج المتجمّدة تملأ العين وتسبي القارب فقضينا هناك ساعات نعدّها اطيب آنات حياتنا واعذبها واطربها ولو حاولنا وصف كل ما عاينّا فيها لخرجنا عن الحدود التي تحرّيناها . فلا نذكر من ذلك الّا زيارتنا الى بستان دعوهُ بستان المياه الغزيرة لكثرة احواضها ومجاريها وفي وسطها نافورة يفور منها الماء الى علو تسعين مترًا فينعكس على شبه المظلّة الى مسافة بعيدة بهندسة رائقة وهم ينيرونها بالليل بالانوار الكهربائيّة . يقال انها اعظم نافورة تُعرف في العمور

هذا بعض ما عدّ رويناه لمواطنينا الاعزّاء رغبةً منّا ان يذوقوا شيئًا من تلك الملذّات التي حظينا بها في تلك الرحلة التي لم يخطر على بالنا ان نتمتّع يومًا بمثلها في حياتنا